مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٤/٤

الأحد ٢٥ كانون الثاني

تذكار القديس غريغوريوس اللاهوتي

رئيس أساقفة القسطنطينية

اللحن السابع

إنجيل السَحَر العاشر

الرسالة

(عبرانيين ٧: ٢٦؛ ٨: ١-٢)

يا إخوةُ إنَّا يلائمنا رئيسُ كهنةٍ مثلُ هذا بارٌّ بلا شرٍّ ولا دَنسٍ مُتَنزِّهٌ عن الخطأةِ قد صارَ أعلى منَ السموات* لا حاجةَ لهُ أن يُقرِّبَ كلَّ يومٍ مثلَ رؤساءِ الكهنةِ ذبائحَ عن خطاياهُ أولاً ثمَّ عن خطايا الشعب. لأنَّهُ قضى هذا مرَّةً واحدةً حينَ قرَّبَ نفسَهُ* فإنَّ الناموسَ يُقيمُ أُناسًا بهمِ الضُّعفُ رؤساءَ كهنةٍ. أمَّا كلمَةُ القسَمِ التي بعدَ الناموسِ فتُقيمُ الإبنَ مكمَّلاً إلى الأبد* ورأسُ الكلامِ هو أنَّ لنا رئيسَ كهنةٍ مثلَ هذا قد جلسَ عن يمينِ عرشِ الجلالِ في السموات* وهُوَ خادِمُ الأقداسِ والمسكنِ الحقيقيِّ الذي نَصَبهُ الربُّ لا إنسانٌ.

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١-١٠)

في ذلك الزمانِ فيما يسوع مجتازٌ في أريحا إذا برجلٍ اسمهُ زكا كان رئيسًا على العَشَّارين وكان غنيًّا* وكان يلتمِسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من

إنجيل زكا

قبل شهر من بدء الصوم الكبير المقدس تبدأ الكنيسة بتهيئتنا لاستقبال هذا الموسم الذي ندخل فيه إلى أنفسنا لنفحصها ونتوب عن خطايانا ونعود إلى الملكوت المفقود. اهتمامات كثيرة في حياتنا اليومية تشغلنا، وذلك لكي نستمر في الحياة على هذه الأرض الفانية. هناك أمور أخرى نهتم بها لأجل أنفسنا، لعالمنا الداخلي. الاهتمام بالنفس أهم بكثير من الاهتمام بالجسد، لكننا لسبب أو لآخر نؤجل دومًا التفكير بالنفس وخلاصها.

نعرف طبعًا أهمية الطعام بالنسبة لحياتنا. بعض الأطعمة جيدة ومغذية وبعضها غير صحي، بعضها خفيف على المعدة والبعض ثقيل، إلخ. وكلنا نبذل جهدًا خاصًا للتأكد من أن الطعام الذي نتناوله مناسب لنا. فكم بالأحرى يجب أن يكون اهتمامنا عندما نقول إن النفس بحاجة إلى طعام وإنه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (متى ٤:٤). كلنا يعرف أننا بحاجة إلى وقت للمطالعة، للتفكير، للتحادث أو للراحة. هذه أمور تحتاجها النفس لكننا لا نعطيها الوقت الكافي، أو الانتباه الكافي. نهتم بقراءة المجلات الاجتماعية ولا نقرأ الكتب الأدبية أو العلمية أو الفلسفية أو الروحية. نهتم للتسلية وليس للتغذية النفسية والروحية، ولا نعلم أن النفس كالجهاز الهضمي تصاب بالإمساك والتحجّر، والنتيجة أكثر إيذاءً. نخصص الوقت الكثير لأمور الجسد الخارجية، والوقت القليل لحياتنا الداخلية، لأنفسنا.

اليوم نحن نقترب من زمن الصوم، موسم الجهاد، حيث تدعونا الكنيسة لأن نتذكر هذا الجزء الداخلي منا ونكف عن هدر الوقت ونتعلم افتداء الوقت لأن الأيام شريرة (أف ٥:١٦).

الصوم زمن التوبة، والتوبة هي إعادة فحص دائمة لأنفسنا وذواتنا، إعادة تقييم لحياتنا، قلب لطريقة عيشنا. التوبة هي الكشف المؤلم لداخل الإنسان، هذا الداخل المنسي المهمل.

أول إعلانات الصوم وما يحمله من معاني تأتينا مع قصة ذلك الإنسان القصير القامة، زكا العشار، جابي الضرائب الذي كان يعتبر جشعًا وكاذبًا وسارقًا.

أراد زكا أن يرى يسوع وكان ملحاحًا في رغبته هذه لدرجة جذبت انتباه الرب يسوع. **الرغبة** هي بداية كل

الجمعِ لأَنَّهُ كانَ قصيرَ القامةِ* فتقدَّمَ مسرعًا وصعِدَ إلى جمَّيزةٍ ليَنْظُرَهُ لأَنَّهُ كانَ مُزمعًا أَنْ يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضعِ رفعَ طَرْفَهُ فرآهُ فقالَ لهُ يا زكَّا أَسرِعِ انزِلْ فاليومَ ينبغي لي أَنْ أَمكُثَ في بيتِكَ* فأَسرعَ ونَزلَ وقبِلَهُ فرحًا* فلمَّا رأَى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّهُ دخلَ ليَحُلَّ عندَ رجلٍ خاطئٍ* فوقفَ زكَّا وقالَ ليسوعَ هاءَنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أَموالي. وإن كنتُ قد غَبَنْتُ أحدًا في شيءٍ أَرُدُّ أَربعةَ أَضعافٍ* فقالَ لهُ يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأَنَّهُ هو أَيضًا ابنُ ابرَهيم* لأَنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أَتى لِيَطلُبَ ويُخَلِّصَ ما قد هلكَ.

تأمل

إذا كان الكهنة هم الوكلاء على المؤمنين والرعاة للأغنام الناطقة والحافظون نظام الشريعة والضابطون أعنَّة السياسة فما بالهم يتغافلون عن حق الوكالة ويتشاغلون عن واجباتها. ويا للعجب من الذين يتقلَّدون الوكالة العالميَّة فإنك تراهم مشمّرين عن سواعدهم ومُتيقّظين للقيام بحق وكالاتهم مجتهدين في نموّ الأموال وربح المتاجر ونفوذ الدعاوي وتحصيل الحقوق متخوّفين من محاسبة موكليهم. وأنت أيها الوكيل على الخراف

الأمور، وكما يقول الإنجيل «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا» (متى٦:٢١). كل شيء في حياتنا يبدأ بالرغبة أو الإرادة، لأن ما نرغبه هو ما نحبه، ما يجتذبنا إليه، وما نستسلم له. نعلم أن زكا كان يحب المال، وباعترافه هو نعلم أنه كان يستعمل الأساليب الملتوية للحصول عليه (لو ١٩: ٨). لقد كان زكا غنيًا ويحب الأغنياء، لكنه اكتشف في داخله رغبة أخرى، أراد أمرًا آخر، وهذه الرغبة أضحت اللحظة الحاسمة في حياته.

قصة زكا العشار تطرح السؤال على كل منا:ماذا تحب وماذا تبتغي وماذا ترغب في أعماقك؟ قد لا تصادف معلمًا يسير في الشارع قرب بيتك تحيط به الجموع. لكن بالتأكيد هناك لحظات في حياتك، ودعوة داخلية سرية في أعماقك تدعوك للتوق إلى غير ما يشغل حياتك من الصباح إلى المساء. توقف للحظة وادخل إلى أعماق قلبك واصغِ إلى إنسانك الداخلي وسوف تجد فيك نفس الرغبة العجيبة التي اختبرها زكا والتي لا يستطيع أحد أن يحيا بدونها ولكنه يخافها في نفس الوقت. «ها أنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ ٣: ٢٠).

دعوة المسيح الأولى لنا من خلال الإنجيل هي أن نرغب. الرغبة هي البداية. إذا توافرت الرغبة نستطيع القفز من الخارج إلى الداخل ونستطيع أن نغيّر نفوسنا. إذا كانت رغبتك أن تكون مع المسيح رغبة صادقة عندها لن يهمك ما يقوله عنك الناس ولن يهمك تجميع المال. زكا لم يهتم بما قاله عنه الفريسيون، كما أنه أعطى نصف أمواله للمساكين ووعد بأن يرد أربعة أضعاف لكل إنسان ظلمه. عندما تكون رغبتك صادقة لن يقف شيء في طريقك، بل ستحاول إزالة كل عقبة لتصل إلى ما تريد. هكذا فعل زكا عندما أراد الوصول إلى المسيح. أحس أن المال الذي جمعه بطرق ملتوية يقف عائقًا بينه وبين المسيح فتخلى عنه. إنجيل اليوم يدعونا لأن نحدد هدفنا السامي ونرغب به ونعمل للوصول إليه بصدق وأمانة.

القديس غريغوريوس اللاهوتي والإرث الإغريقي

تحتفل الكنيسة المقدّسة بذكرى القديس غريغوريوس أسقف نازيانز (٣٢٩/٣٣٠-٣٩٠)، المعروف بغريغوريوس اللاهوتي، في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني. الصفحات تضيق بذكر فضائل هذا القديس وميزات الإرث الذي تركه للكنيسة في جوانبه اللاهوتيّة والأدبيّة والتعليميّة. فالقديس غريغوريوس لا يزال يُعتبر إلى اليوم المرجع الذي ما بعده مرجع في وضع المصطلح اللاهوتي المتعلّق بعقيدة الثالوث الأقدس، وذلك خصوصاً انطلاقاً ممّا يُعرف بالخطب اللاهوتيّة الخمس التي ألقاها في مدينة القسطنطينية بين العامين ٣٧٩ و٣٨١. وقد وضع القديس غريغوريوس، فضلاً عن خطبه، ما يزيد على مئتي رسالة بعضها يتعلّق مباشرة بمسائل لاهوتية ومعظمها يرتبط بجوانب من حياة هذا القديس ويكشف لنا الكثير من صداقاته وعواطفه ومشاغله وشؤونه وشجونه. يضاف إلى ذلك أنّ القديس غريغوريوس كتب دراسة مهمّة في فنّ المراسلة وقواعد كتابة الرسائل معتبراً أنّ الرسالة الناجحة هي تلك التي تتقيّد بشروط البساطة والوضوح والإيجاز وطرافة الأفكار.

غير أنّ ثمّة مَعْلَماً من معالم تراث

الناطقة والأمين على المتاجر الروحية توجَد هكذا متغافلاً فكيف لا تخاف من قول موكلك أعطني حساب وكالتك فإنك لا تكون في ما بعد لي وكيلاً. وكيف لا تخاف من انتقامه إذا ظهرتَ قدامهُ مفرِّطًا مضيّعًا للأموال غير محافظ عليها. وكيف لا ترتعد من صدور أمره قائلاً للجنود أوثقوا يديه ورجليه وألقوه في الظلمة حيث يكون البكاءُ وصرير الأسنان. اسمع قول الكتاب أن يعقوب إسرائيل لما تولّى رعية غنم لابان خاله اختار النظر في مصالحها على لذات نفسه فهجر لذيذ المآكل وفارق حلاوة المنام وجعل السهر عادةً له وطبعًا حتى صيَّر تلك الغنم مضاعفة العدد سمينة الأجسام جميلة المناظر. فإذا كان يعقوب راعي الأغنام الحيوانية بذل نفسه دون القطيع هكذا حتى آل به الاجتهاد في حفظها إلى مكابدة الأتعاب والأسهار واحتمال حرّ الصيف وبرد الشتاء والمحافظة عليها ليلاً ونهارًا من افتراس الوحوش مع الاعتناء بجبر المكسور منها ومداواة الأجرب ونقلها إلى المراعي الخصيبة والمياه العذبة ونحو ذلك، مع أن صاحب هذه الغنم لم يكن ملكًا ولا صاحب شوكة بل هو خاله لابان الكافر العابد الأوثان، فأيُّ عذر يكون للمتقلدين رعيةَ الغنم

القديس غريغوريوس لا يحظى، في العادة، إلا بقليل من الاهتمام هو الجانب الشعريّ. فأسقف نازيانز، علاوةً على كونه لاهوتياً محلّقاً وخطيباً مفوّهاً ومترسّلاً لامعاً، كان شاعراً مبرّزاً. ويحصي العارفون حوالى سبعة عشر ألف بيت من الشعر منسوبة للقديس غريغوريوس اللاهوتي ذات مواضيع متنوّعة. وقد وضع أسقف نازيانز، ولا سيّما في الحقبة الأخيرة من حياته، أي بعد المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) عدداً كبيراً من القصائد التي يتناول فيها مواضيع ذات طابع مسيحي صرف كالثالوث الأقدس والخلق والعناية الإلهية والتجسد ومعجزات المسيح وشؤون أخلاقية. كذلك ألّف القديس غريغوريوس عدداً من القصائد ضمّنها سيرة حياته والكثير من أفكاره وآرائه وأحاسيسه وآماله ورغباته. ولعلّ هذا الجانب الشعريّ من الأدب الذي أنتجه القديس غريغوريوس هو أكثر ما يبرز تضلعه من الإرث الإغريقي ومحاولته أن يبيّن أنّ الحضارة الرومانية الجديدة ذات الطابع المسيحيّ لا تقلّ إلماماً بتراث اليونان عن الحضارة الوثنية التي كان يفخر أبناؤها بأنّهم أبناء الإغريق فكريًّا.

والحقّ أنّ مشكلة الموقف المسيحي من التراث اليوناني قضيّة تضرب جذورها في الفكر الآبائي الأول الذي تلا نشأة كتب العهد الجديد. فالآباء الأوّلون تساءلوا عن الموقف الذي يمكن المسيحيّة أن تتّخذه من الثقافة الإغريقية، وذلك بعد خروجها من النطاق اليهوديّ الضيّق وصيرورتها ديانةً عالميّة لا تخاطب اليهود فقط، بل تمتّد إلى كلّ شعوب الإمبراطوريّة الرومانيّة على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم. ولقد رأى القديس يوستينوس الشهيد (توفي حوالى ١٦٥)، في هذا الصدد، أنّ الكلمة الإلهي خاطب الشعوب اليونانية بالفلسفة وهيّأها بذلك لتجسده، كما خاطب اليهود بالناموس. أمّا المعلّم أقليمس (١٤٠-٢٢٠)، رئيس مدرسة الإسكندريّة، فانفتح على التراث الإغريقيّ، ولا سيّما الفلسفة، داعياً إلى استخدامها في التعبير عن الحقائق المسيحية ومعتبراً أنّ المسيح الكلمة هو معلّم الفلسفة الأكبر وأنّ المسيحية هي الفلسفة الحقّ. ويبدو أنّ القديس غريغوريوس اللاهوتي يندرج في هذا الخط أيضاً لا عبر استناده إلى بعض الكلمات الفلسفيّة للتعبير عن حقائق الإنجيل فحسب، بل خصوصاً عبر اعتماده الخطابة والشعر، وكلاهما من الآداب اليونانيّة الوثنيّة بامتياز، في نقل الإنجيل.

إنّ هذه الظاهرة لدى القديس غريغوريوس، أسقف نازيانز، يمكن ربطها ربطاً وثيقاً بنوعيّة الثقافة التي تلقاها. فالمعروف أنّ غريغوريوس طلب العلم في قيصريّة فلسطين، حيث كان المعلّم أوريجنّس قد أسّس مدرسته الشهيرة، ثمّ في الإسكندرية وأثينا، معقل الثقافة اليونانيّة آنذاك. ولم يكتفِ القديس بأخذه عن كبار أساتذة الفلسفة والخطابة والشعر في عصره، بل مارس تعليم الخطابة والبلاغة، ما يُستدلّ منه على أنّ الوثنيين إيّاهم اعترفوا بطول باعه في هذا المضمار. وبإزاء التعييرات التي كان الوثنيون يوجّهونها للمسيحيين أنّهم يقلون عنهم معرفة بالتراث الإغريقي العظيم، سعى غريغوريوس إلى تفنيد هذا الرأي لا عبر خطبه التي أدهشت ناس عصره فحسب، بسبب ما اشتملت عليه من فصاحة البيان وبليغ العبارة والعلم بدقائق اللغة اليونانيّة، بل بواسطة ما نظمه من جميل الشعر أيضاً. ويُفصح القديس

الناطقة الذين يهملون خرافهم ولا يهتمون بمصالحها كما ينبغي بل يتركونها عرضةً لافتراس الذئاب الخاطفة والوحوش الضارية والضياع والنهب والغرق وليس صاحبها راعيًا مثل لابان ولا كأحد البشر القابلين للموت والبلى ولا هي كالرعايا من البهائم المشتراة بثمن من المال بل هي قطعان ناطقة وصاحبها المسيح الذي اشتراها بدمه الكريم. فاسمع قوله تعالى موبخًا لأولئك الساقطين حيث يقول على لسان النبي الويل لرعاة إسرائيل الذين يهلكون غنم رعيتي ويبدّدونها يقول الرب أنتم فرّقتم غنمي وتركتموها عرضة للضلال ومأكلاً للوحوش الضارية. تذبحون السمينة وتأكلون المعلوفة ولا تجبرون المكسورة ولا تعالجون المريضة ولا تطلبون الضالّة. أيغرُك أيها الراعي الغافل أنني تركت الغنم تحت عصا رعايتك؟ سأحكم بعقابكم وتخبرون بسوء أعمالكم يقول الرب. واجمع غنمي من جميع البلدان وأردُّها إلى ديارها فتكثر وتنمو وأختار لها رعاةً غيركم. فإذا علمنا شدَّة وعيدهِ للمتهاونين ينبغي لنا أن ننتبه من غفلتنا ونصحو من سكرتنا ونحافظ على مصالح نفوسنا ووكالتنا لنفوز برضى ربنا الذي له المجد إلى الأبد. آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

غريغوروي عن موقفه هذا في الرسالة الثانية والثلاثين من رسائله إذ يقول: «ونحن أيضاً أتيكيّون»، نسبة إلى منطقة أتيكا، أي أثينا وضواحيها، والتي وضع معظم شعراء بلاد اليونان ومؤرّخوها وخطباؤها مؤلّفاتهم مستخدمين لغتها.

يضاف إلى ذلك أنّ توجّه القديس غريغوريوس إلى نظم الشعر بغية نقل الفحوى الإنجيلي إنّما يعبّر عن اقتناع لديه بأنّ الفنّ يمكن أن يكون جسراً يربط المسيحية بثقافة عصره. طبعاً، ما من شكّ في أنّ المسيحية، عبر ليتورجيّتها، سعت إلى وضع الشعر في خدمة قول الحقائق الإلهيّة. لكنّ أهميّة شعر القديس غريغوريوس تكمن في بقاء معظمه خارج الإطار الليتورجيّ وفي تعدّيه الأطر التقليديّة للقصيدة إلى استخدام أساليب شعريّة أكثر تطوّراً كالمأساة اليونانيّة، أو التراجيديا، ذات الأصل المسرحيّ. وقد حمل لنا التقليد الكنسيّ مسرحيّة بعنوان «المسيح المتألّم» منسوبة إلى القديس غريغوريوس، وهي تصف آلام المسيح وقيامته على نحو مسرحيّ دراميّ، مستندةً إلى نمط الكتّاب المسرحيّين اليونان الكبار. بذا، يمكن القول إنّ تراث القديس غريغوريوس اللاهوتي يشكّل فصلاً آخر من فصول إقبال آباء المسيحيّة ومفكّريها الكبار على المعطى الثقافي الإنساني يتّخذون أجمله ويستفيدون منه حتى لا يبقى شيء خارج إطار مملكة المسيح.

من أقوال القديس غريغوريوس اللاهوتي

هل بإمكان الذبيحة الإلهية أن تنفع النفوس بعد الموت؟

إن تقدمة الذبيحة الإلهية الشريفة بإمكانها أن تساهم في خلاص تلك النفوس التي لم ترتكب خطايا فظيعة لا يمكن غفرانها وماتت فيها دون مغفرة. هذا ما برهن عليه أحياناً كثيرة ظهور نفوس أموات ظهرت لذويها وطلبت منهم أن يقدموا من أجلها ذبائح إلهية. كما وانها تساعد أيضاً نفوس الأحياء الموجودين في أحوال صعبة. هذا ما سمعته أنا بأذنيّ:

كان رجل أسيراً مكبَّلاً بسلاسل حديدية بعيداً عن وطنه. وقد علمتُ عن هذا الرجل عن طريق امرأته التي كانت تقدم من أجله ذبائح إلهية في بعض الأيام. فأخبرتني يوماً ان رجلها كان يشاهد السلاسل منحلّة عنه في بعض الأيام بطريقة غير منظورة وان تلك الأيام كانت الأيام التي كانت تقدّم فيها من أجله التقدمة الشريفة.

أمسية مرتلة

لمناسبة أسبوع الصلاة من أجل وحدة الكنائس يسرّ رابطة كليّات ومعاهد اللاهوت في الشرق الأوسط ATIME أن تدعوكم لحضور أمسية ترتيل تحييها جوقات معاهد اللاهوت في لبنان عند السادسة من مساء الأحد ٢٥ كانون الثاني ٢٠٠٤ في كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس – ساحة النجمة – بيروت.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb